

مؤتمر الدوحة الثامن لحوار الأديان
“التشابه الجليل الجديد من منظور ديني”
الدوحة بتاريخ ٢١-١٩ اكتوبر ٢٠١٠



تحديث منظومة التعليم لبناء مجتمع عالمي متوازن دينيا

الدكتور عبد السلام أحمد
نائب مدير الجامعة الإسلامية
الجامعة الإسلامية ، شانتابرام، باتيكاد
كيرلا – الهند
e-mail: drsalam@aljamia.net

المحتويات

٣	مقدمة ..
٤	بناء المجتمع ودور الدين فيه ..
٨	لماذا منظومة التعليم ؟ ..
١٢	أزمة التعليم الديني ..
١٥	التوازن وأهمية من منظور إسلامي ..
١٩	البيئة التربوية ..
٢٢	"الناس أعداء ما جهلوا" ..
٢٥	الخاتمة ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الغالبية العظمى من سكان العالم متدينون، ومن ثم يلعب الدين في حياتهم اليومية دوراً كبيراً، كما أنه يحدد مواقفهم وسلوكياتهم نحو الآخرين. وكان من المفروض أن يكون هذا الدور البارز للدين ضماناً كافياً لبناء مجتمع عالي متوازن دينياً، على أن الدين – أيها كان – يتضمن القيم والمبادئ المساعدة على ذلك.

ولكن هل الواقع يصدق هذا الكلام؟

كلاً، إن القيم الدينية للأسف الشديد – من ضمنها القيم الضامنة للتوازن – لا ترى في حياتهم ولا يتمثلونها في مواقفهم وسلوكياتهم. والغريب في الأمر هو أن كل من يمارس الظلم والجور والتطرف والإرهاب والتعصب وعدم التسامح في العالم، هو صاحب دين يلتزم به ويمارس شعائره التعبدية في حياته اليومية! وكأن إلتزامه الديني يفقده التوازن في الحياة ويدفعه إلى التطرف والإرهاب، فأصبح الدين في قفص الإتهام، ويعتقد أنه يثير الفتن في الأمم ويعكر صفاء العلاقات الإنسانية، إلى درجة أن يخاف المتدين متديناً آخر ويرهب بعضهما ببعض!

ليس الدين هو المتهم أصلاً بل الشخص الذي اعتنقه هو المتهم في القضية. لأن اعتناق الدين كان غير متزن تماماً، حيث إنه يبالغ في تمسكه ببعض جوانبه الفرعية، وفي الوقت ذاته يهمل جوانبه الأخرى الأساسية، ويعطي الأهمية لما ليس له أدنى أهمية، ولا يراعي أولويات دينه ولا يوازن بين أهمه ومهمه، كما أنه لا يهتم بالظروف والملابسات التي قيلت فيها الآيات واتخذت فيها المواقف، وفعلاً يحرف الكلم عن مواضعه، حتى تصير شخصيته شخصية غير متزنة بالرغم من أنه متدين إسماً وشكلًا.

المبحث الأول

بناء المجتمع ودور الدين فيه

إن دور الدين في الحياة معروف منذ القدم. وهو جزء عميق أصيل في فطرة الإنسان، كما أخبرنا القرآن الكريم: "فطرة الله التي فطر الناس عليها"^١. وإن يمكن استغناء الإنسان عن أي شيء، لا يمكن استغناءه أبداً عن الدين في أي مكان ولا أي زمان. هذا الذي قاله المؤرخ الإغريقي بلوتارك: "قد وجدت في التاريخ مدن بلا حضور، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد... إن مدينة بلا أرض تقوم عليها أسهل من قيام دولة بلا إله"

يقول الأستاذ العقاد: "إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصلة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه، ويستطيع الفرد أن يستغني عنه، في علاقته بتلك الجماعة، أو فيما بينه وبين سيرته المطوية عن حوله، ولو كانوا من أقرب الناس إليه".^٢

لم يضمحل دور الدين حتى في العصر الحديث، بل لازال في صعود وقوه، ولم يعد ممكناً استبعاده من حياة البشر، بل إن العالم الجديد يشهد العودة الكبرى للأديان، هذا ما أكدته تونى بليير، رئيس الوزراء البريطاني السابق، وأطلق على هذا القرن "قرن الأديان"، وقال: "إذا كان القرن العشرون قرن السياسة، فإن القرن الحادي والعشرين هو قرن الأديان"^٣

وتأتي أهمية الدين وخطورته من هذا المنطلق، فيكون الدين يقيناً أكبر مصنع لانتاج القناعات والمفاهيم لدى الأجيال الناشئة، مما يجعل قضية التدين ذات أهمية كبيرة.

^١. سورة الروم: ٣٠

^٢. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد ص ١٥ نقلًا عن كتاب. بينات الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨م،

^٣ The Independent daily 31 May 2008

التدین المنقوص

يجدرنا بنا الإشارة إلى أن التدین المنقوص هو الذي يولد في المجتمع عدم الاتزان أو يفقده التوازن. فلا تحل هذه المعضلة إلا بالتدین الصحيح، فالمشكلة التي تعتقد بأنها ولدت من رحم الدين لا تحل إلا بالدين، الشوكة لا تزال إلا بالشوكة، تستخدم في عملية الجراحة الأدوات التي تسببت في الجراحة.

ومن هذا المنطلق، لا يمكن بناء مجتمع عالمي متوازن دينيا إلا بالدين الصحيح والتدین العتدل المستقيم، ويكون ذلك بالطبع من خلال التربية الصحيحة.

لا يستثنى من هذا الأمر المسلمين لأن التدین الحالي لكثير منهم تنقصه مبادئ عديدة لا قيام للدين إلا بها، ولا يعبر تدينيهم عن تعاليم الإسلام وروحه. ولا يزالون يقدمون صورة سيئة عن الدين الإسلامي بتدينهم الخطأ والمنقوص. يركزون على الشعائر التعبدية ويقصرون الدين على الطقوس، إسلامهم إسلام الطقوس الشعائري، يهملون فحواها ومضامينها، ويهتمون بعلاقة المخلوق بالخالق ويهملون علاقة المخلوق بالمخلوق، رغم أن حق العباد في الإسلام أولى من حق العبود.

ليس الدين في نظر الإسلام إلا نعمة من نعم الله: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا" ^٤ و مهمته كما قال الإمام الغزالى والإمام الشاطبى وغيرهما "حفظ النفس والعقل والعرض والمال والدين" ^٥. فإن الدين الذي جاء لتحقيق مصالح الناس وإقامة القسط والعدل يستحيل أن يكون سببا للفتن والمصائب في الدنيا.

فخلاصة القول إن الدين يستطيع، بلا شك، بناء مجتمع متوازن، بل ليست هناك قوة مثل الدين يؤثر على بناء المجتمع ويجلب إليه قيم التوازن، إذا ما استغل للمصالح واستخدم للشر، وقد وقعت فعلا هذه الكارثة المؤسفة في جميع الأديان بدون استثناء بما فيها الدين الإسلامي.

فقدان التوازن يعم جميع أمم العالم

إن ظاهرة التطرف والتعصب وعدم الاتزان ليست قصرا على المسلمين، بل يوجد في جميع أمم العالم من يوصف بشخصية غير متزنة دينيا، ولا يخلو دين من الأديان في عصرنا الحاضر من المتطرفين وإن كان الدين بريئا منهم، وآخر دليل على ذلك إعلان كنيسة "دوف التبشيرية" والأسقف تيري جونز (Terry Jones) في ولاية "فلوريدا" الأمريكية حرق القرآن الكريم في الذكرى التاسعة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر، وأضف إلى ذلك مقتل مسلمة محجبة

^٤. المائدة: ٤

^٥. المواقف في أصول الشريعة. أبو إسحاق الشاطبى، دار بن عفان، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٧/١/٣٨، ١٠/٢.

مرة الشربيني في ساحة إحدى دور القضاء ببرلين قضية الرسام الدنماركي كورت فتيسير جارد الذي أثارت رسوماته المسيئة للنبي صلی الله عليه وسلم احتجاجات واسعة.

وفي الوقت ذاته يوجد في كل الأديان معتدلون متسمون يتصدرون مثل هذه التصرفات من قبل إخوانهم في الدين، ويدل عليه تصدّي الأميركيين لحملة حرق القرآن.

إن أسباب التطرف وعدم التوازن في كل مجتمع ترجع إلى حدّماً إلى نظام التعليم المتبع لديهم منذ سنوات مديدة. وإن بعض الأمم ومناهجها التعليمية لعبت دوراً كبيراً في غرس قيم العنصرية والكراء في شعوبها والعداء تجاه الآخرين، وفي مقدمتها المجتمع الإسرائيلي، وليس أدل على ذلك من البحث الذي أعدّه الباحث الإسرائيلي "إيلي بوديا" المحاضر في جامعة حيفا، حول كتب التدريس الإسرائيلية والذي توصل فيه إلى أن المناهج الدراسية الإسرائيلية ساهمت طيلة نصف قرن في إشعال جذوة الصراع العربي - الإسرائيلي^٦.

دولة إسرائيل قدمت مثلاً واضحاً على كيفية تنشئة جيل يقوم على أسس العداوة والكراء. وعلى الرغم من أنها تعرف بدولة علمانية، تدرس المواد الدينية اليهودية بجميع مضمونها التي تحدث على العنصرية والتطرف، واصدق برهان على ذلك الجيل الصهيوني في إسرائيل الذي لا يرضى بالتط ama" المعتدل" ، ولم يعد راضياً بأقل من "التط ama" المتشدد".

من أين تعلم هذا الجيل علم اغتصاب الحق وتشريد وتهجير المواطنين الأصليين وقتلهم، ومن ثم سرقة أراضيهم وأملاكهم؟ وليس ذلك إلا من خلال مناهجهم التعليمية ومدارسهم الدينية. لأن الصهانية كانوا منذ البداية – وإن كان عددهم قليلاً جداً – يركزون على إنشاء المدارس اليهودية في البلاد التي يسكنون فيها، ليس في أوروبا فقط، بل في البلدان العربية أيضاً التي آوتهم وأسكنتهم في أراضيها مثل مصر وتونس والمغرب والعراق. ومن خلال تلك المدارس نجحوا في زرع العقائد اليهودية في الجيل اليهودي، القائلة بامتياز شعب الله المختار وأرض الميعاد^٧.

وكان الصهانية من خلال مدارسهم ومناهجها يروجون لفكرة أن إقامة دولة يهودية في فلسطين هو تحقيق لما جاء في التوراة، والرب قد اختار الشعب اليهودي واحتار الأرض.^٨ ومثلاً كتاب "سفر يشوع بن نون" أحد اسفار العهد القديم، يدرس من الصف الرابع وحتى الثامن، يقوم

^٦. نقل عن كتاب التعليم الديني – التوصيف – ص: ٦٨، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي، ٢٠١٠م
راجيل الويذرور، التعليم العربي في أرض إسرائيل، دار نشر "يد يستحق بن تسيفي" القدس ١٩٩٧م الجزء الأول
ص: ٣٢ نقل عن كتاب التعليم الديني – التوصيف- ص: ٧٠.

^٧. سمير سمعان، خليل السواحري، التوجهات العنصرية في مناهج التعليم الإسرائيلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٤

بتأصيل فكرة الشعب المختار، كما يدرس أفعال الإبادة الجماعية التي مارسها الأبطال التوراتيون^٩

وتركت المناهج الدينية في المدارس الإسرائيلية على تقديس الحرب كنظام حيادي لإسرائيل، وأن الخدمة العسكرية هي رئيس الواجبات الدينية التي يطلبها رب من الإسرائيليين، حيث يحث هذا رب العسكريين الإسرائيليين على تنظيف أرض الميعاد من الأغيار العرب، وعلى بناء هيكلاً له.^{١٠}

فعلى الجميع أن يعيدوا النظر في النظام التعليمي ويصححوا الأخطاء، بدلاً من أن يتهم بعضهم بعضاً، وهذا ينطبق على العالم الإسلامي وأمريكا وأوروبا وإسرائيل والهند على حد سواء.

^٩. المصدر نفسه ص: ١٦

^{١٠}. ليس عقالة مقال بعنوان "ارهابية النظام التعليمي في اسرائيل" منشور على موقع alzaytonna بتاريخ ٢٠٠٧/٩/١٤ م

المبحث الثاني

لماذا منظومة التعليم؟

"التربيـة هي الحـيـة"^{١١}. وهي آداـة المجتمع في إعداد الإـنسـانـ. هي التـي تـحـلـقـ الأمـ. فـإـنـ بداية الوـحـيـ بـكـلـمـةـ "اقـرأـ" لمـ تـكـنـ مـصـادـفـةـ، كانـ أـوـلـ ماـ نـزـلـ مـنـ الوـحـيـ وـلـيـسـ آـيـةـ السـيفـ والـقتـالـ. وـكـانـ عـلـىـ أـسـاسـ أـنـ القرـاءـةـ هيـ نـقـطـةـ بـدـاـيـةـ فيـ مـسـيرـةـ المـجـتمـعـ، فـلـيـسـ هـنـاكـ عـمـلـ بـدـونـ عـلـمـ. أمرـ اللهـ رـسـولـهـ بـالـعـلـمـ أـوـلـاـ، "فـاعـلـمـ أـنـهـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللهـ"^{١٢}، وـعـنـونـ الإـمامـ الـبـخـارـيـ لـلـأـحـادـيـثـ المـتـعـلـقـةـ بـالـعـلـمـ فـقـالـ "بـابـ الـعـلـمـ قـبـلـ القـوـلـ وـالـعـمـلـ"^{١٣}. منـ عـمـلـ فـيـ غـيـرـ عـلـمـ كـانـ مـاـ يـفـسـدـ أـكـثـرـ مـاـ يـصـلـحـ كـمـاـ قـالـ عمرـ بـنـ عـبـدـ العـزـيزـ^{١٤}.

الـعـلـمـ وـتـعـلـيمـهـ هـوـ كـلـ شـيـءـ فـيـ الـحـضـارـةـ، وـالـدـينـ حـضـارـةـ، وـلـاقـيـامـ لـلـحـضـارـةـ إـلـاـ بـالـعـلـمـ، وـلـاقـيـامـ لـلـعـلـمـ إـلـاـ بـالـحـضـارـةـ. وـالـدـينـ عـلـمـ وـالـعـلـمـ دـيـنـ. فـالـدـينـ وـالـعـلـمـ مـتـلـازـمـانـ مـتـكـامـلـانـ، يـكـمـلـ بـعـضـهـ بـعـضـاـ. وـهـمـاـ مـنـ التـوـائـمـ، يـجـمـعـ بـيـنـهـمـاـ اـتـصـالـ عـضـويـ. فـبـنـاءـ المـجـتمـعـ لـاـ يـمـكـنـ بـدـونـ الـعـلـمـ وـالـدـينـ، وـلـاـ يـمـكـنـ زـرـعـ التـواـزنـ فـيـ المـجـتمـعـ بـدـونـهـمـاـ.^{١٥}

فـجـملـةـ القـوـلـ إـنـ نـظـامـ التـرـبـيـةـ وـالـتـعـلـيمـ هـوـ نـقـطـةـ بـدـاـيـةـ. وـهـوـ الـذـيـ يـقـرـرـ أـخـلـقـ الأمـ وـسـلـوكـيـاتـهـمـ وـأـفـكـارـهـمـ وـمـوـافـقـهـمـ. بـمـعـنىـ أـصـحـ، إـنـ تـرـيدـوـ تـغـيـيرـاـ فـيـ مجـتمـعـ مـاـ فـابـدـأـوـاـ بـنـظـامـ تـعـلـيمـهـمـ.

وـنـظـراـ لـهـذـهـ الأـهـمـيـةـ الـكـبـيـرـةـ لـلـتـعـلـيمـ وـالـتـرـبـيـةـ فـيـ حـيـةـ الإـنـسـانـ فـلـنـبـدـأـ بـهـ بـنـاءـ المـجـتمـعـ المـتـواـزنـ دـيـنـيـاـ. فـكـمـاـ لـلـتـعـلـيمـ، بـوـجـهـ الـعـمـومـ، دـورـ كـبـيرـ فـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ، فـإـنـ لـلـتـعـلـيمـ الـدـيـنـيـ، بـوـجـهـ الـخـصـوصـ، دـورـ أـكـبـرـ فـيـ الـمـوـضـوـعـ، لـأـنـ قـيـمـ التـواـزنـ الـدـيـنـيـ تـزـعـزـعـ مـنـ خـلـالـ الـتـعـلـيمـ الـدـيـنـيـ.

^{١١} Dewey, John. Education today. G.P. Putmas Sons Newyork, 1940, P.6
Kandel, I.L American education in the twentieth century.
Hardward University press, Cambridge, Massachusetts. P.111

^{١٢} محمد: ١٩

^{١٣} صحيح البخاري: ٣٧/١

^{١٤} جـامـعـ بـيـانـ الـعـلـمـ وـفـضـلـهـ لـابـنـ عـبـدـ البرـ: ٢٧/١، دـارـ الـكتـبـ الـعـلـمـيـةـ، بـيـرـوـتـ.
^{١٥} بـيـنـاتـ الـحلـ الـإـسـلامـيـ، دـ. يـوسـفـ الـقرـضاـويـ صـ: ١٥ مؤـسـسـةـ الرـسـالـةـ، بـيـرـوـتـ ١٩٨٨ـ مـ

إن تعليم الدين قد بدأ ببداية الوحي، وكان ذلك مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن خلال تعليم الكتاب أي الدين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المجتمع المتوازن. "هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين".^{١٦}

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل نظام التعليم الديني الحالي كفيل لبناء المجتمع المتوازن؟ وإن اعترفنا بكتاباته لأداء ذاك الدور في الزمن الماضي، هل هو قادر عليه في العصر الحديث الذي تغير فيه كل شيء؟، وهل منظومة التعليم الديني تحتاج إلى تحديد وتطوير وتعديل؟

فنجيب ونقول: نعم بالتأكيد، إن التحديد مطلوب حتى تكون منظومة التعليم الديني كفيلة لبناء المجتمع المتوازن دينياً.

التحديد عمل صالح

قضية تحديد منظومة التعليم الديني هل هي ترف فكري أم هي ضرورة يفرضها الواقع؟ هل هي أمر مستورد من الخارج أم هي فريضة يقتضيها الوضع الداخلي؟ الأسئلة كثيرة والهواجس موجودة. إذا كان الأمر يتعلق بالتعليم الديني فالجدل لا ينتهي، وخاصة فيما يخص باصلاحه وتحديثه.

وتستحق الملاحظة أنه لم يترك هذه القضية رائد من رواد الإصلاح الديني إلا وتناولها، عنوان كتاب الإمام الغزالي "إحياء علوم الدين" يوحى باصلاح علوم الدين، وابن خلدون خصص جزءاً مهماً في مقدمته لمناقشة قضية التعليم الديني وإصلاحه^{١٧}، والإمام محمد عبده معروف بمطالبه لإصلاح التعليم في الأزهر، والشيخ الطاهر ابن عاشور كان يتحدث عن إصلاح التعليم في جامع الزيتونة وعنون مشروعه الإصلاحي "أليس الصبح بقريب".^{١٨}

ومن المعروف بأن الجدلية على خلفية أحداث سبتمبر كانت تركز على نظام التعليم، وحملت مناهج التعليم في العالم الإسلامي مسؤولية الإرهاب، وفي واقعنا المعاصر اشتدت هذه الجدلية بين المؤيدين والمعارضين حيث أنها تعتبر خطة أمريكية لفرض وصايتها على العالم الإسلامي بزعم أن المناهج التربوية في العالم الإسلامي أخرجت العناصر الإرهابية التي كانت مسؤولة عن أحداث سبتمبر. هذه المقوله تحمل بعض الحق لا الحق كله. قد يكون فيه صواب ولكن ليس هو كل الصواب، حيث أن نظام التعليم قد ساهم فعلاً في ردة الفعل للإرهاب كما ساهم في توليد الإرهاب. فالتشخيص الخاطئ لا يقود إلا إلى العلاج الخاطئ.

^{١٦}. الجمعة: ٢

^{١٧}. مقدمة ابن خلدون ص: ٤٣٢، دار القلم، بيروت ١٩٩٢.

^{١٨}. أليس الصبح بقريب، دار الملتقي، جلباً ٢٠١٠ م

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن المؤسسات التعليمية الدينية الموجودة حالياً في الساحة وإن كانت دون المستوى ولها عيوب كثيرة، فإنها لم تخرج عناصر الإرهاب في العالم. فأسامي بن لادن مثلاً لم يدرس في تلك المؤسسات الدينية بل كان يدرس في بعض المدارس الغربية في بعض الأحيان وسافر إلى أوروبا وأمريكا في سنواته الأولى، وما كان الظواهري إلا متخرجاً في كلية الطب. وليس هناك إلا استثناءات قليلة. يستدل بعض الناس بظهور طالبان على أن المدارس الباكستانية كانت ولا تزال تساهم في إنتاج الإرهاب في باكستان وأفغانستان. وبينما هيؤلاء أن المدارس والجامعات التي أنشئت في باكستان كانت على نمط جامعة دار العلوم، ديويند في الهند التي تأسست عام ١٨٦٧م أي قبل استقلال الهند، وتنتهي مناهج ديويند نفسها. وهذه الجامعة خرجت فوجاً كبيراً من الطلاب في الهند، ولماذا لا يوجد في المتهمين في أحداث الإرهاب في الهند من ينتمي إلى هذه الجامعة؟ ولماذا لا يتورط أحد منهم في الإرهاب؟ إن هذه الحقيقة إن تدل على شيء فإنما تدل على أن الإرهاب لا يولد من رحم المدارس، بل هو ينبع من الظروف التي تحيط بالإرهابيين.

ولا يخفى على أحد ما يتآمره المتآمرون على الإسلام والأمة المسلمة، واستغلالهم لجميع الأجهزة والوسائل بما فيها منظومة التربية، وفي مقدمتهم المستعمرون، والإستعمار كما وصفه مالك بن نبي شيطان^{١٩} ("ثم لآتينهم مُن بين أيديهم ومن خلفيهم وعن أيمانهم وعن شمائهم ولا تجد أكثرهم شاكرين"). فليس منظومة التعليم خارجة عن دائرة الاستعمار، بل هي تعتبر لبه ولحمه وشحنه وسده، من خلالها يؤثر على المستعمر، ولا يهمه إلا الإستيلاء على العقول، وسياسة الإستيلاء على الأرض قد انتهت دورها، وإن وقع مما هو إلا توطة للإستيلاء على العقول. وهذه هي الأجندة الخفية وراء ضجيج إصلاح منظومة التعليم في العالم الإسلامي الذي ينادي به المستعمرون.

ومع ذلك، ورغم اقرارنا بهذه الحقائق، نجزم ونقول بأن مؤامرات المتآمرين وكيد الكائدين لا يجوز أن تحول دون محاسبة الأنفس وإعادة النظر والبحث عن الأمثل والأنسب، ولا ترفض إعادة النظر إذا كانت نافعة لمستقبل زاهر.

إن هواجس التدخلات الخارجية تحول دائماً دون الإصلاح ولا بد من تجاوزها، وينبغي لنا أن نجرأ على التعديل والتطوير والتحديث إن دعت الضرورة إليه، علماً بأن الحداثة لا تعني

^{١٩}. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مالك بن بنى، ص: ٢٨، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٠م.
^{٢٠}. سورة الأعراف:

الانقطاع عن التراث، إنما هي سعي دائم إلى التجديد والابتكار.^{٢١} وكما ينبغي أن ينبع الاصلاح من الداخل لأنها إذا كانت مفروضة من الخارج ترفض وتعتبر محاولة لطمس الهوية الإسلامية وتغريبها.

ومن الجدير بالذكر أن قضية التحديث والتتجديد في نظام التعليم تعتبر قضية ذات أهمية كبيرة، لأنها هي التي تؤهله لمواكبة العصر من خلال الإحياء الحضاري والتصويب الفكري. وإن حركة الحياة متعددة ومتغيرة دائماً. فمن لا يعرف زمانه سيكون خارج التاريخ، وقد قيل "رحم الله امرأ عرف زمانه".

وحين نتحدث عن التغيير والتحديث قد يسأل سائل: هل يمكن تغيير منظومة التعليم من عصر إلى عصر إذا كان التعليم يتعلق بالدين الإسلامي، والدين ثابت لا يتغير؟ فيجب علينا التوضيح بأن الدين لا يتغير بحال في أصوله وعقائده وأخلاقه وشرائعه وقيمته ومبادئه إلا أن أسلوبه ومنهج تعليمه ودعوته يتغير بتغيير الزمان والمكان. إن أئمة الدين قد قرروا قديماً "بأن الفتوى تتغير بتغيير الأزمنة والأمكنة والأحوال"، والفتوى تتعلق بأحكام الدين، في تغيير المنظومة والأسلوب والمنهج أحق وأولى.

إن القرآن نفسه أقوى دليل على تغيير الخطاب والأسلوب، فأسلوب السورة المكية غير أسلوب السورة المدنية. ومواضيع السور المكية تختلف عن مضمون السورة المدنية. والأسلوب أيضاً يختلف. فالأسلوب المكي تغلب عليه الشدة بخلاف الأسلوب المدنى، أنه أسلوب تعليمي هادئ.^{٢٢}

التحديث والتتجديد والتطور إلى الأحسن من حيث هو عمل صالح. كان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم "اللهم اجعل يومي خيراً من أمسِي واجعل غدي خيراً من يومي"، والرسول صلى الله عليه وسلم قال: "من استوى يوماً فهو مغبون". فالإنسان الناجح من يتقدم دائماً إلى الأمام بخلاف الإنسان الرجعي الذي يمشي إلى الوراء.

وفي نظر الإسلام حتى الدين يتجدد، وهو دين سماوي: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"^{٢٣}. وهذا الحديث يدل على أن الدين الإسلامي يستوعب حركة الحياة المتعددة ويقدم الحلول لما يطرأ على الواقع من القضايا الجديدة.

^{٢١} حداثة محمد عبده، ماض أم مستقبل؟ أشكاليات الفكر الإسلامي، محمود البطل ص: ٢٣١، مركز دراسات العالم الإسلامي: ١٩٩١م.

^{٢٢} خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة ٤٢٠٠٤م.

^{٢٣} أبوداد في كتاب الملحم

المبحث الثالث

أزمة التعليم الديني

قبل أن ننطرق إلى تحديث منظومة التعليم الديني تستحق الإشارة إلى أزمة مناهج التعليم الديني والتي تتلخص في الأمور الآتية:

١) عدم مواكبة العصر: إن كثير من المقررات الدراسية تقليدية، أعدت قبل قرون لا تتواءم مع عصرنا نحن. على سبيل المثال مفهوم دار الإسلام ودار الكفر وتصنيف الذي لا زال مطروحا.

٢) أداة وظيفة لا منهج حياة: لم يكن التعليم الديني إلا أداة وظيفة وعمل ولم يعتبر منهجه منهج حياة يطبق في الحياة اليومية. لا يمكن تغيير الإنسان وتطويره إذا لم تتغير نظرته إلى العلم ومقاصده.

٣) التلقين والحفظ بدلاً من التفكير المنهجي وال الحوار، والتربية على الجمود وتمجيد التراث وتقدير الإجتهادات: حفظ المتنون والشروح والحواشي وحسن التلقي لا تزال تعتبر عناصر التعليم الديني. لا بد أن يهتم بالتراث والإجتهادات، غير أنه لا يجوز أن يصل ذلك الإهتمام إلى درجة تقدير التراث والإجتهادات السابقة والمناهج القديمة، لأنها كانت مخلفات ظروف خاصة وملابسات معينة قد لا تليق بظروفنا نحن. قال عنه الإمام محمد عبده في تعبيره الحاد: "أكنس من دماغي ما علق من وساخة الأزهر، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة"^٤، "أريد أن أعلم في هذا الجامع شيئاً نافعاً، بدلاً من هذه الشروح العتيقة البالية الخالية من المعنى التي هي أضر من كتبكم القديمة المؤلفة في القرون الوسطى"^٥. ومعروف بأن القرآن والسنة أحق وأولى أن يتبع في جميع الأزمنة والأمكنة وينبغي للمسلم إعادة قراءتها وهو ينظر بعينه الأخرى إلى الظروف والملابسات المحيطة به.

٤) الاهتمام بالأمور الشكلية وترك القضايا الاجتماعية: تغلب على كثير من المؤسسات التعليمية الدينية وطلابها ومدرسيها الانزعالية، في شغلهم الشاغل هو الفروعيات والخلافيات وقضاء

^٤. الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، ص: ١٧٩/٣ محمد عمارة ، دار الشروق - بيروت. ١٩٩٣ م

^٥. المصدر السابق ص ١٩٩.

معظم أوقاتهم في ترجيح مذهب ما في الخلافات الفقهية تاركين وراءهم القضايا الاجتماعية المهمة التي لا يقام للدين إلا بإتخاذ مواقف بناءة تجاهها.

مفاهيم يجب أن تصحح

هناك مفاهيم يجب أن تصحح واصطلاحات يعاد النظر فيها، تلك المفاهيم والاصطلاحات صيغت في ظروف غير ظروفنا وأزمنة غير زماننا، ولا تناسب عصرنا وإن كانت مناسبة في عصرها. صحيح أن الأصول القرآنية والنبوية ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، ولكن قراءتها وتفسيرها وشرحها تختلف من زمن إلى زمن، وليس المشكلة في القرآن والحديث، وإنما المشكلة تكمن في قراءها ومفسريها وشرحها.

إن الأمة المسلمة اليوم في أمس الحاجة إلى صياغة منهجية تفهم فيها الجزئيات في إطار الكليات والمتغيرات في إطار الثوابت والاجتهادات السابقة في إطار الظروف الجديدة. ويجب مراعاة هذه المنهجية في منظومة التعليم.

ومن المفاهيم التي يجب تصحيحها مفاهيم القتال وتصنيف دار الإسلام ودار الكفر قضية الولاء والبراء وغيرها. وخذ على سبيل المثال قضية القتال:

وردت في تفاسير الآيات القرآنية أخطاء عديدة حول هذا الاصطلاح تسببت في سوء الفهم عن الإسلام واستغلت استغلالاً واسعاً للهجوم عليه، ومن ضمن هذه الآيات:

وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرُجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفَتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقُتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ إِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. إِنْ انتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ إِنْ انتَهُوا فَلَا عُدُوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ. الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ^{٢٦}.

إن عبارة "واقتلوهم حيث ثقفتموه" تستخدم دليلاً لإعلان الحرب على جميع غير المسلمين، كما تستخدم عبارة "وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله" دليلاً للإكراه على اعتناق الإسلام واستعمال السيف لذلك. لأن كلمة "الفتنة" تفسر بمعنى "الشرك بالله"^{٢٧}

وفي ظروفنا الحالية يجب التركيز على قراءة هذه الآيات كلها ليس جزئياً، فيتبين أولاً بأن أولى هذه الآيات (رقم ١٩٠) تبين مشروعية القتال لرد العداوة وأن الجهاد يكون لوقف العداوة ولا يلتجأ إليه إلا إذا لم تكن هناك وسيلة أخرى، تدل عليه العبارة "الذين يقاتلونكم". وتؤكد آيات القتال في القرآن عموماً إنما شرع القتال لرد الاعتداء والظلم، علماً بأنه لا ديانة للظلم والاعتداء، يطبق حتى على المؤمنين، يدل عليه قوله تعالى: "وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلُوا

^{٢٦}. البقرة: ١٩٤-١٩٥.

^{٢٧}. انظر تفسير القرطبي: ٣٥٤/٢. البغوي: ٢١٤/١. السعدي: ٨٩/١. الطيري: ٥٧٠/٣. الجللين: ٢٠١/١.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ^{٢٨}
 والأمر الثاني حتى جهاد الدفع لا يجوز أن يتعدى الحدود لأن القرآن يقول هنا "ولا تعتدوا إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعَتَدِّينَ" وجاء شرحه في الأحاديث الشريفة:
 "وَلَا تَقْتُلُوا شِيخًا فَانِيَا، وَلَا طَفَلًا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأً"^{٢٩}.
 "لَا تَقْتُلُوا الْذَرِيَّةَ فِي الْحَرْبِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ لَيْسَ هُمْ أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: أَوْ لَيْسَ خَيْرَكُمْ أَوْلَادَ الْمُشْرِكِينَ".^{٣٠}
 "وَلَا تَقْتُلُوا الْوَلَدَانَ، وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ"^{٣١}

وقول الله تعالى "واقتلوهم حيث ثقفتهم" لا يدل على القتل العام للكفار بدليل أن الآية تضيف: "وأخرجوه من حيث أخرجوكم"، وإنما تدل على رد العداون لأن الظلم والعداون قد وقع على المسلمين.

قوله "وقاتلهم لا تكون فتنه" لا يمكن تفسيره حتى لا يكون هناك شرك، وإن صح أن المقصود بالفتنة في الآية الشرك لتنافي ذلك مع قواعد: "لا إكراه في الدين..."^{٣٢} "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين"^{٣٣}، "لو شاء ربك لآمنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَيِّعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"^{٣٤}، "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ"^{٣٥}.

يجب تفسير الآيات القرآنية التي تتعلق بالقتال في هذا الإطار والمفهوم الكلي، لا بد أن تكون في الاعتبار هذه المبادئ المتعلقة بالقتال، وإن الإدعاء بعموميتها خطأ فادح. وذلك لسبعين:

١) يجوز لل المسلم الزواج بالكتابية: "الْيَوْمَ أَحِلَّ لَكُمُ الطَّيَّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْسَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْسَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَنْ قَبِيلُكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْسِنِينَ غَيْرُ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرُ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ"^{٣٦}

ويأمر الإسلام الزوج بالعاشرة الطيبة مع زوجته "وعاشروهن بالمعروف"، فكيف يأمر الزوج المسلم أن يقتل زوجته حيث وجدها وأن يحصرها ويقعد لها كل مرصد (الإشارة إلى الآية رقم: ٥ من سورة التوبية).

٢) إذا جاز قتل أي كافر فلماذا تحدث القرآن والسنّة عن حقوق غير المسلمين؟

٢٨. الحجرات: ٩.

٢٩. رواه أبو داود

٣٠. رواه أحمد

٣١. سنن البيهقي ٩٠/٩.

٣٢. الفرقة: ٢٥٦

٣٣. الهود: ١١٨

٣٤. يونس: ٩٩

٣٥. يوسف: ١٠٣

٣٦. المائدۃ: ٥

المبحث الرابع

التوازن وأهميته من منظور إسلامي

وقد جاء في المعجم الوسيط: (توازن) الشيئان: تساوايا في الوزن^{٣٧}، وفي القاموس المحيط:

اتزن: اعتدل. الوزن: كامل العقل والرأي.^{٣٨}

إن الوسطية التي استخدمها القرآن الكريم والسنّة النبوية لوصف الأمة الإسلامية "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً"^{٣٩} تتضمن معنى التوازن. يقول الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي: الوسطية يعبر عنها أيضاً بالتوازن أو الاعتدال، وتعني بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه...^{٤٠}

ومن معاني الوسطية: العدل، فسر النبي صلى الله عليه وسلم "الوسط" في الآية بالعدل^{٤١}، وفسرها المفسرون في قوله تعالى "قال أوسطهم الم أقل لكم لولا تسجرون"^{٤٢} أي أعدلهم^{٤٣}، وفسرها الإمام ابن كثير الخيار والأجود.^{٤٤}

فإلا إسلام كله وسط وتوازن وعدل، لا افراط ولا تفريط، توازن في خلق الكون كله: "إنَّا كل شيء خلقناه بقدر"^{٤٥}، "الذِّي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصرَ هَل ترى مِنْ فَطُور"^{٤٦} ، "لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِلَكٍ يَسْبِحُون"^{٤٧} .

^{٣٧}. المعجم الوسيط ٢/٣٠٠، المكتبة الإسلامية اسطنبول.

^{٣٨}. القاموس المحيط ٢/٦٦٦. دار أحياء التراث العربي، لبنان

^{٣٩}. سورة الفرقان: ١٤٣

^{٤٠}. كلمات في الوسطية الإسلامية ومعالمها، د. يوسف القرضاوي ص: ٩، المركز العالمي للوسطية دولة الكويت ٢٠٠٧

^{٤١}. البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٩) وأحمد في المسند (١١٧١)

^{٤٢}. الثلم: ٢٨

^{٤٣}. تفسير الطبراني ١٢/١٩٣، تفسير ابن كثير ٤/٤٥٢١، وتفصيل القرطبي ٢/٤٨١، تفسير الرازمي ٤/٨١٠، تفسير أبي السعود ١/٢٣

^{٤٤}. تفسير ابن كثير ١/١٩٠

^{٤٥}. القمر: ٤٩

^{٤٦}. الملك: ٣

^{٤٧}. يس: ٤٠

توازن ووسطية في الأمة: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهادة على الناس ويكون
الرسول عليكم شهيدا".^{٤٨}

توازن في الاعتقاد، وفي العبادات، وفي الأخلاق وفي التشريع، وفي التعامل مع الآخرين.
انطلاقا من هذا يجب التركيز في منظومة التعليم على بعض العناصر المهمة التي تزيد أهميتها
في الظروف الحالية والتي تولد في المجتمع التوازن، وهي على سبيل المثال، تكون كالتالي:
١) التعددية: منطق آحادية الحق والفرقة الناجية لا يجوز أن تحول دون استيعاب التعدد.
لأن التعدد والتنوع سنة من سنن الله. "وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَأُونَ
مُخْتَلِفِينَ".^{٤٩}

٢) يعتبر الإسلام الإنسان مكرم من الله تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم".^{٥٠} فيهم المسلم وغير
المسلم. ومن مظاهر التكريم حرمة الدماء والأعراض والأموال. "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَانُوا قَاتِلِ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا
فَكَانُوا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ
لَمْ سُرْفُونَ"^{٥١} فالنفس البشرية كلها مصونة بغض النظر عن أنه مسلم أو غير مسلم.

٣) الأصل في التعامل مع غير المسلم هو البر والقسط: "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبْرُوْهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ".^{٥٢} البر
أقصى درجات حسن الخلق، وصف الله تعالى علاقة الإنسان بوالديه بهذا الاصطلاح.

٤) العدل هو القاعدة الأساسية في التعامل، ولو كان مع الأعداء: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
قَوَامِينَ لَهُ شَهِداءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمُنَّكُمْ شَنَّانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ".^{٥٣}

٥) قبول أنبياء الديانات الأخرى والإيمان بهم شرط من شروط الإسلام والإيمان: "آمَنَ
الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَا لَيْكُتَهُ وَكُتُبُهِ وَرَسُولُهُ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ".^{٥٤} "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ

^{٤٨}. البقرة: ١٤٣

^{٤٩}. الهدى: ١١٨

^{٥٠}. آل عمران: ٦٤

^{٥١}. المائد: ٣٢

^{٥٢}. المائدة: ٩-٨

^{٥٣}. المائد: ٨

^{٥٤}. البقرة: ٢٨٥

نُوحًا والذِّي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ
كَبَرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ^{٥٥}.

٦) احترام الرأي الآخر: المبدأ الذي يلتزم به الإسلام في التعامل مع الآخرين هو حوار حضاري راقي ليس فرض الرأي قهراً وتسلطاً على الآخرين. "إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَىٰ أَوْ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ"^{٥٦} وإن قاعدة "لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِي" تعكس احترام الرأي الآخر والتسامح مع المخالفين. فقد جاء القرآن الكريم بقيمه الإنسانية التي تولي الحوار أهمية كبرى، فهناك محاورات بين الخالق ومخلوقاته من الرسل والملائكة وحتى من الشيطان الرجيم. وهناك محاورات بين الرسل وأقوامهم، ومع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومع المشركين.

٧) الالتزام بالحكمة في جميع المخاطبات: رسم القرآن الكريم منهج التعليم الديني إذ قال:
هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَلَوَّ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ
كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفَيْ ضَلَالٍ مُّبِينٍ^{٥٧}. بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم معلماً، وكان معلم نهجه كما رسم القرآن: (١) التزكية (٢) تعليم الكتاب (٣) تعليم الحكم.

قوله عز وجل عن الحكمة مجاوراً للقرآن يدل على أهمية الحكمة، وهو مطلوب في الحوار والدعوة أيضاً: "أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"^{٥٨} كما قال: قُلْ هَذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ^{٥٩}.
الحكمة والموعظة الحسنة وال بصيرة، هذه العناصر لا بد أن تتوافر في جميع المخاطبات،
بما فيها مخاطبة الجيل الجديد. وتعتبر الحكمة أداة النجاح والخير الكثير. "وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ
فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَكُّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ"^{٦٠}.

وهي مما يتحاسد عليه في الدنيا، ففي الحديث الشريف: لا حسد إلا في اثنين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته بالحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها".^{٦١}

^{٥٥}: الشورى: ١٣

^{٥٦}: سباء: ٢٤

^{٥٧}: الجمعة:

^{٥٨}: النحل: ١٢٥

^{٥٩}: سورة يوسف: ١٠٨

^{٦٠}: البقرة: ٢٦٩

^{٦١}: صحيح البخاري ١٦٥١، صحيح مسلم ٢٦٨

ومن معاني الحكمة كما عرفها العلماء "وضع الأشياء في مواضعها".^{٦٢} وفسر الإمام ابن كثير "الحكيم" بقوله: الحكيم في أفعاله وأقواله في وضع الأشياء في محالها".^{٦٣} وقال صاحب الظلال: "يعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور ويحسنون التقدير وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل وهو خير كثير".^{٦٤}

ويقول في تفسير آية البقرة رقمها ٢٦٩: "أوتى القصد والإعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود، وأوتى إدراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور، وأوتى البصيرة المستبرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال ، وذلك خير كثير متنوع الألوان".^{٦٥}

وقول ابن عطية عن الحكمة هو "الكلام الصواب القريب الواقع في النفس أجمل موقع"^{٦٦} ومن مظاهر الحكمة ترتيب الأولويات وتقدير الأهم على المهم والتدرج في تطبيق الأولويات واختيار المناهج المناسبة للأحوال والأعمار والمستويات والأزمنة والأمكنة.

٨) استخدام المصطلحات المناسبة: ليس من الحكمة الاصرار على استخدام المصطلحات التي تعد استفزازية في ظروفنا نحن، وأساء الناس فهمه. وعلى سبيل المثال: كلمة "الكافر"، تستخدم هذه الكلمة واسعاً حين يذكر أهل الديانات المختلفة ولو لم يكونوا جاحدين ولم يلحدوا، صحيح أننا نعتقد أنهم كفار برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولكن القرآن لم يخاطب الناس باسم الكفر وإن كانوا كفاراً بل خاطبهم بالنداء الرفيق "يا أيها الناس" "يا بني آدم" "يا أهل الكتاب" "يا عبادي". ولم يخاطبهم بعنوان الكفر إلا في آيتين: إحداهما: "يا أيها الذين كفروا لا تَعْتَذِرُوا إِنَّمَا تُجْزَوُنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"^{٦٧} والأخرى قوله تعالى: "قُلْ يَا إِيَّاهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ"^{٦٨}.

فتكتفينا عبارة غير المسلمين بدل الكفار، ونعلم أطفالنا هذه العبارة التي توحى باستيعاب الآخرين بدلاً من اتهامهم بالكفر.

٩) التركيز على القيم المشتركة والتعاون في المتفق عليه : " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ تَعَالَوْ إِلَىٰ كَلْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فِإِنْ تَوَلُّوْ فَقُولُوا أَشْهَدُو بَيْنَنَا مُسْلِمُونَ"^{٦٩}

^{٦٢}. البحر المحيط لابن حيان ٣٩٣/١.

^{٦٣}. تفسير ابن كثير ١٨٤/١.

^{٦٤}. في ظلال القرآن ٣٥٦٥/٦.

^{٦٥}. ٣٠٢/١.

^{٦٦}. تفسير ابن عطية ٤٢٩/٥.

^{٦٧}. التحرير: ٧.

^{٦٨}. الكافر: ٦-١.

^{٦٩}. آل عمران: ٦٤.

المبحث الخامس

البيئة التربوية

ليس التعليم منهج ومنظومة فحسب، بل هو بيئه تربوية أيضا تحيط بتدريس المنهج والممواد وت تكون من أخلاق الأساتذة والإداريين والمرشفين بالإضافة إلى المناخ التعليمي داخل الصف وخارجه في رحاب المدرسة. ومعلوم أن التربويين لا يهتمون بطابور الصباح والنشاط الرياضي وتكوين اللجان الأدبية وغيرها من الأنشطة الخارجية عن المناهج الدراسية إلا لتأثيرها البالغ في تكوين شخصية الطالب، فهذا الاهتمام يأتي بهدف تربوي معين.

وكذلك من الخطأ الواضح اعتقاد أن الفلسفة التربوية التي تصوغ الشخصية رهن بالقرارات التعليمية الدينية وحدها دون أن يكون هناك أي دور لمؤسسات المجتمع الأخرى مثل دور الأسرة وأجهزة الإعلام وسياسة الحكومة وغيرها. فالحقيقة أنه ليست منظومة التعليم الديني سوى عامل من عدة عوامل أخرى في صناعة الشخصية.^{٧٠}

”إن دور المفكرين والإعلاميين والعلماء والمثقفين والمربيين والآباء والقادة السياسيين هي أدوار متكاملة لغرس العقائد والقيم والمفاهيم الإيجابية في ضمائر أبناء الأمة منذ نعومة أظفارهم فلا يرون إلا بها ولا يتصرفون إلا على أساسها، وتصبح ثوابتها لغة أولى لوجданهم وتصوراتهم ومنطلقات فكرهم.

لذلك يجب أن تتضاد جهود كل هؤلاء للعمل على بناء منهج تربوي متكامل سليم المنهج نقي الثقافة يستدرك الأبعاد التي أهملت في تربية النشاء المسلم، بما في ذلك التربية السياسية، التي تبني على الالتزام بمبادئ الإسلام في الإخاء والتكافل والعدل والشورى والرفق والحسنى في علاقات المجتمع، فذلك هو أساس السلم والأمن والازدهار والاستقرار الذي يجب أن يرتكز عليه بناء الأمة ويكون منطلق حركتها نحو الاستقرار والإبداع والإعمار”.^{٧١}

٧٠. تغير المناهج بين جدل الداخل والخارج، مقالة أحمد محمد الدغشي في موقع إسلام أون لاين بتاريخ ٢٠٠٤-٣-٨
٧١. العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي: عبد الحميد أبو سليمان ، ص:٨١:دار السلام، القاهرة ٢٠٠٧ م

النظام التعليمي المتنز و النموذج النبوى

التجديد لا يخالف العودة إلى الماضي، لأنه ليس كل العودة إلى الماضي تخلف، وليس التجديد هدم وبناء ولكنه ترميم وتحديث للأصل وعودة إلى ما كان عليه من قبل، وعلى هذا الأساس فالتعليم الديني لا بد أن يستمد من تاريخه الأول، ومن مصدره الأصلي، وهو منهج التربية النبوية. حينما نتحدث عن أهمية البيئة والنموذج في بناء المجتمع المتوازن دينيا لا بد من ذكر ذلك النموذج الرائع.

إن مدرسة الرسول ومناهجها التعليمية كانت تنقصها المباني الفاخرة واللوائح المزينة، غير أنها كانت تفوق الجامعات الحديثة بمضامينها القيمة ومنظومتها الراقية، هي التي خرجت جيلا لا مثيل له في التاريخ، نوعية جديدة من البشر، يجيد التعامل مع الآخر ويحترم التعددية، يحب ولا يبغض ويستوعب ولا يرفض، لأن الآيات القرآنية كانت تنزل عليهم ويتلوها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ويلقفهم بأن التعددية ليست إلا سنة من سنن الله ولم يشا الله أن يمحو الآخر من الوجود، "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين"^{٧٢}، واعتبر الحوار عنصرا أساسيا من أدوات التعامل مع الآخر واشترط أن يكون ذلك بالتي هي أحسن.

وكانت مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم مدرسة الرحمة بكل أبعادها ومدلولاتها، حتى حدد القرآن رسالة الرسول وحصرها على الرحمة بقوله "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"^{٧٣}. وكلمة "العالمين" لا تقتصر على عالم الإنسان بما فيهم المسلمون وغير المسلمين بل تتجاوز إلى العالم الأخرى بأكملها: "وَمَا مِنْ دَبَابٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّةٌ أَمْتَلُكُمْ مَا فِرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"^{٧٤}. وقالنبي الرحمة عليه الصلاة والسلام: "الراحمون يرحمون، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".^{٧٥}

ومن هذه المدرسة تخرج عمر بن الخطاب الذي وصل العدل قمته في خلافته حين يأمر رجالا مسيحيانا أن يقتضي من أمير مسلم لأنه اعتدى عليه، وذلك في قصة ابن عمرو بن العاص مع القبطي، وسأل عمر سؤاله المشهور: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراها؟"^{٧٦}

^{٧٢}. اليود: ١١٨.

^{٧٣}. الأنبياء: ١٠٧.

^{٧٤}. وسورة الأنعام: ٣٨.

^{٧٥}. أخرجه الترمذى

^{٧٦}. تاريخ عمر بن الخطاب ، ابن الجوزي - ص: ١١٩.

ومن هذه المدرسة تخرج الصحابة رضوان الله عليهم الذين رحب المسيحيون بهم إلى بلادهم. فقد ذكر المستشرق توماس أرنولد "أن الجيش الإسلامي حين بلغ منطقة (فُحْل) بالأردن – وكان الجيش بقيادة أبي عبيدة – كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب المسلمين يقولون: يا عشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفي لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا. ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا.

وغلق أهل حمص أبواب مدinetهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولائهم وعدتهم

أحب إليهم من ظلم الرومان وتعسفهم".^{٧٧}

^{٧٧}. الدعوة إلى الإسلام، ص: ٧٣ ، توماس أرنولد ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م

المبحث السادس

"الناس أعداء ما جهلوا"

لا ينعدم التوازن إلا بالجهل، وبالنسبة للمسلم الغير متزن تكمن مشكلته في جهله بالإسلام، ولذلك كان لزاما على المجتمع المسلم نشر العلم الصحيح بين المنتجين إليهم وإعداد منظومة تعليم تساعدهم على ذلك، فيتعلمون من خلالها أن الاتزان هو الذي يوصله إلى هدفه، أما عدم الاتزان يدمره ويدمر المجتمع من حوله.

إن جهالة الإنسان بدينه الذي اعتنقه ويتمسك به يؤدى إلى مصيبة كبيرة في العالم، وهو يتخذ مواقف مخالفة تماماً لمبادئ دينه، يضل ويُضل، فلا بد أن يكون صاحب الدين ملماً بدينه وملتزمًا به الالتزام الحقيقى، لا بظاهره بل بباطنه لا بقشره بل بجوهره لا بجسده بل بروحه، فإذاً يكون مؤهلاً للحياة في عالم التعدد الذي جعله الله من سنته.

وفي الوقت ذاته لا يكفي للإنسان أن يعلم نفسه بل لا بد أن يعلم غيره، لا يكفي أن يعلم دينه بل عليه أن يعلم دين الآخرين، هذا هو الحل الأمثل للنزاعات والاختلافات، "الناس أعداء ما جهلوا" إن جهالتهم عن الآخرين تؤدى إلى الحكم الخاطئ عليهم وتسبب في سوء الظن بهم مما يعكس صفاء الجو ويولد العداوة والبغضاء في المجتمع.

ومن الملاحظ أن كل الأديان تدعو إلى التسامح وتحث على التوازن، وينبغي أن تدرس هذه المبادئ في جميع المدارس الحكومية والأهلية والمدارس العلمانية والدينية حتى يستقر في أذهان الأجيال بأن الأديان كلها تدعو إلى التسامح ولا تعادي بعضها بعضاً، وإنما تنبع العداوة من بعض أصحابها الذين يشوهون صورة دينهم وهم يظنون أنفسهم أنهم يحسنون إلى دينهم ويحترمونها ويحافظون عليها !

فينبغي أن تدرس مبادئ التسامح وأصول التوازن التي وردت في الكتب المقدسة لدى الأديان، وهي كثيرة، وإليكم بعض الأمثلة :
إن كتب الديانة الهندوسية تؤكد هذا المعنى في العبارات الآتية :

'May the Earth, which has many heights, slopes and plains, bearing on her bosom herbs that possess healing powers, bind together scattered men of diverse natures' (12.1.2).

'You may live and let me also live' (19.69.1)

'The small-hearted man procures food in vain. I speak the truth-this verily is his death. He cherishes neither god nor friend; he who eats alone, eats sin alone' (10.117.6).

'March together; let your words be united; let your minds be united; accept your share of fortune just as the gods, concurring, accepted their portion of the sacrifice in ancient times. May your prayers be common; common be your fraternity; may your minds move with one accord; may your hearts work in harmony for one goal; may you be inspired by a common ideal; I offer for you a common oblation. May you resolve with one accord, may your hearts beat in unison; may your thoughts be harmonious, so that you may live together in happiness.'⁷⁸

'Making all our acts noble.'⁷⁹

'Knowledge leads us to immortality.'⁸⁰

ولا تختلف المسيحية عن الديانات الأخرى في هذه القضية، أنظر ما أتى بهذا الصدد في إنجيل متى: "سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطmek على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا. ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطيه. ومن أراد أن يقترب منك فلا ترده. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعدائكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم"⁸¹
لا يمكن بناء المجتمع المتوازن دينيا إلا بتدريس مبادئ الأديان المعتدلة وليس دين معين بل يدرس الطالب إلى جانب دينه مبادئ أديان أخرى تساعدة على استيعاب ثقافة التعدد والتسامح.

هذه الحقيقة بدأت تدركها كثير من الدول في العالم، وخاصة بعد أحداث الحادي عشر

من سبتمبر ٢٠٠١ م. وفي عام ٢٠٠٧ م أعلن وزراء التربية في أوروبا هذا الأمر كالتالي:

"Regardless of the religious education system that exists in a particular country, children must receive tuition that takes account of religious and philosophical diversity as part of their intercultural education"⁸²

وفي نفس العام ٢٠٠٧ م في مؤتمرها المنعقد في برلين طالبت نفس الأمانة بتدریس جميع الأديان بدون تمييز حتى يسود جو الحوار والتسامح في العالم"⁸³

الهنـد نـموذـجا

⁷⁸ . Rig Veda, 10.191.2-4

⁷⁹ . Rig Veda, 9.63.5

⁸⁰ . Yajur Veda, 40.14

⁸¹ . إنجيل متى، الإصحاح الخامس: ٣٨ - ٤٠

⁸² . Final declaration (paragraph 23) of the 22nd session of the permanent conference of European ministers of education, Istanbul, 4-5 May 2007.

⁸³ . Resolution on the place of religion in schools, adopted by the Fifth World Congress of the Education, Berlin, 22-6 July 2007

إذا كانت منظومة التعليم تنتهج تدريس مبادئ الأديان كلها، وخاصة التي تتعلق بالتسامح والأخاء بين الناس، توفر بالطبع على بناء المجتمع المتوازن. وفعلا قد انتهت بعض الدول هذا المنهج وتتضمن مناهجها التعليمية هذا الأمر، وفيها بعض دول أوروبا وجمهورية الهند. وبالرغم من أن الهند دولة علمانية، تعطي مناهجها التعليمية أهمية بالغة لجميع الأديان مقدرة لدورها في بناء المجتمع وتدرس بعض الجوانب المهمة من الإسلام والمسيحية والهندوسية والبوذية وغيرها من الأديان، مما يساعد على نشر الإحترام والتقدير لجميع الأديان في الجيل الناشئ. كما ينص قانون التعليم في البلاد على ضرورة احترام الأديان كلها حتى يعم روح التسامح والتعاون بين الأمم المختلفة في الدولة.^{٨٤}

ولا تقتصر الجهود بهذا الصدد على المناهج وحدها، بل هناك اهتمام بالغ في التطبيق وتقديم النموذج العملي، حيث يختلط طلاب الأديان المترفة في صفوفهم ويجلسون جنبا إلى جنب ويتعاطون ويتبادلون أفكارهم وتصورهم وبؤثرهن ويتآثرون ويفهمون ويفهمون ويندمجون في المجتمع، وفي الوقت ذاته لا يدفعهم الإندماج إلى الذوبان بل يحافظون على هويتهم ويعضون عليها بالنواجد.

هذا النموذج يبرز جليا في جنوب الهند، وخاصة في ولاية كيرالا التي تختلف عن الولايات الأخرى ويسود فيها جو التسامح الديني دائما بخلاف الولايات الأخرى التي تشهد في بعض الأحيان التوتر في العلاقات والتمييز بين الأديان.

⁸⁴ . National Curriculum Frame Work 2005, National Council of Educational Research and Training

الخاتمة

إن البشرية كلها تتطلع إلى عالم جديد يسود فيه الأمن والسلام والحب والود والتسامح والتعاون. عالم جميل يتعدد وتنوعه، تستمتع فيه جميع الأمم بالحرية الكاملة والإحترام المتبادل والتعايش السلمي.

إن هذه الأحلام والأمال لا تتحقق إلا بالعلم، وإنما العلم بالتعلم، فليتعلم كل واحد من المجتمع مهارة العيش المشترك وفن التوازن. ونحن على يقين بأن الدين لا يكون حائلا دون ذلك بل هو ضامن له وكفيل به. فلتكن منظومة التعليم قائمة على هذه الفلسفة، ولتطبق من خلالها جميع العناصر المهمة في المجتمع ولتنشر مبادئها بواسطة منظومة التعليم المتمثلة في المدارس والجامعات والمرشفين عليها والبيئة التربوية فيها، والأباء والأمهات، والإعلام والقيادات السياسية، وتتكافف جميع هذه العناصر حتى يتم بناء مجتمع متوازن دينيا في العالم. وإن ذلك لممكن، إذا خلصت النية وقويت الغزيمة ورصنت الخطة.

والله الموفق

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين